المرافقالخدمية في مكة المكرمة في عصر الدولتين السعودية الأولى والثانية

1233-1157هـ/1744-1818م، 1240-1309هـ/1824-1891م

إعداد

أ.د/ مجدى عبد الجواد علوان عثمان

أستاذ الآثار والعمارة الإسلامية
وكيل كلية الآداب – جامعة أسيوط

ظلت مكة المكرمة تتبع الدولة العثمانية -حتى بدأت إرهاصات قيام الدولة السعودية الأولى1157-1233هـ/1744-1818م، والتي ظل حكم آل سعود فيها منذ استيلائهم على مكة المكرمة وإلى خروجهم منها أوائل عام 1228هـ/1813م -نحو سبع سنوات وشهرين، وكان يتولى أمر مكة لهم الشريف غالب، وكان الأمير سعود بن عبد العزيز يحج سنويًّا آن ذاك ، وأيضًا خلال عصر الدولةالسعوديةالثانية 1240-1309هـ/1824-1891م، ثم تم بعد ذلك توحيد بلادالحجازجميعها تحت حكمالمملكةالعربية السعودية ، بعد قيام الدولة السعودية الثالثة

سنة 1343هـ/ 1924م على يد الملكعبدالعزيزآلسعودسنة 1345هـ/1926م، حيث بدأت البلاد عهدًا جديدًا، وعُرِفَت بلاد الحجاز من وقتها باسم المملكة العربية السعودية.

ولقد كانت مكة المكرمة خلال العصر العثماني مثلا للمدينة الإسلامية التي تلتف حول مركزها الديني وهو الحرم المكي الشريف، وعرفت بأزقتها الضيقة، وشوارعها، وأحيائها، وأسواقها التي تصب من جميع الجهات في اتجاه المسجد الحرام (شكل 1).

وخلال موسم الحج انتشرت في مكة المكرمة القهاوي البلدية التي كانت تعمل منذ الصباح الباكر وحتى الحادية عشرة مساء، وكانت توجد بها دكك وكراسٍ من الخشب، وأحسنها يوجد في حي جياد أقدم أحياء المدينة، وأكثرها كثافة سكانية،و كان يجلس فيها الحجاج، وخصوصًا ما كان منها خارج البلد في الصيف الحار، يشربون فيها الشاي والقهوة والنرجيلة، وكانت تعقد ببعض هذه القهاوي حفلات سمر دينية، تؤدى فيها كلها مدائح نبوية، كما كان يرتادها المرشدون والمطوفون، وسماسرة قوافل الحجاج المختلفة، حيث يقومون بأعمال تجارية كتأجير جمالهم للسفر من مكة إلى جدة والمدينة.

وكان في مكة حَمَّامَان بنيا على نسق حمامات مصر العثمانية، واحد بمنطقة باب العمرة الذي يكتظ بالحجاج، بناه محمد باشا وزير السلطان سليمان القانوني سنة 980هـ/1572م، ويعتبر من أفضل الأبينة في المدينة، ويرتاده بشكل أساسي الأجانب من الوافدين على مكة، والثاني بحي القشاشية ويسمونه حمام النبي.

ويتضحمنالتحليلالمعماريلعمارةالحماماتالباقيةفيبلدانالعالمالإسلامي- ومنهاالحماماتفيالعمارةالعثمانيةمعالاختلافيالتفاصيلالمعمارية- أنالمكوناتالأساسيةللحمامعبارةعندخلمنكسرلتوفيرالخصوصية،يليه (مسلخ) عبارةعندرقاعةمربعةمسقوفةبشخشيخةخشبية،يفتحعليهاإيواناتبهامصاطبوفسقيهمقامةعلىعمدرخامي ة،خصصهذاالمسلخلخلعالملابس،ويعرفوثائقيًابالمُشلَّح،يليهبيتأوللحرارةمعدللجلوس،لكييتعودالمست حمعلىالحرارةقبلالاستحماموبعده،وغالبًامايتكونمنإيوانيتصدرهحوضرخام،وتسقفهقبةضحلةبهامض اوي (فتحاتللضوء) مغشاةبزجاجملون،يليهبيتالحرارةالثاني،وتكوندرجةحرارةالمياهفيهمرتفعة،ويتكونمنأواوينبهامغاط س،وخلوات،وأحواض،ومصاطب،معظمهامنالرخامالمجزع،ومغطىبقبةكبيرةحولهاقبابصغيرةبهاف تحاتللضوء (مضاوي) منزجاجمعشق،ويلحقبالحماممستوقد،ودسوتالرصاص (بيتالقدور)،ومرافقأخرىمثل: الساقية،والبئر،والأحواض،ودوراتمياه.

ويعتمدالمسقطالعاملعمارةالحمامعلىالانتماءإلىالداخلوالحفاظعلىالخصوصية،واعتمدالتشكيلا لفراغيعلىتنوعالارتفاعتبعًالوظيفةكلعنصرمعماري،واختلافالتسقيفبالقبابالضحلةوالأقبيةالطولية،ف ضلًاعنالتشكيلاللونيوالمنظورالبصريللفسيفساءالرخاميةوالخزفيةبالأرضيات.

كما بني بها سبيل عند الطرف الشمالي من المسعى، بناه السلطان العثماني سليمان القانوني ضمن عمارته للمسجد الحرام، تزوده بالماء قناة مكة، ويشرب منه الحجاج طوال النهار.

وكان يوجد في الطرف الجنوبي من حي المسفلة خان كبير متهدم، خصص لإقامة قافلة الحجاج اليمنيين الوافدين عن طريق الساحل.

كما شيدت في مكة المكرمة كتبخانة (مكتبة عامة) عند باب أم هانئ أحدأبوابالحرمالمكيالجنوبيةالسبعة،وأمهانئهيزوجةهيرةبنعمروالمخزومي،وكانلهابيتباسمها،تمضم هلتوسعةالمسجدالحرام، تسمى (كتبخانة شرواني زاده محمد رشدي باشا)، والي الحجاز سابقًا، وأخرى عند باب الدُّرَيبَة قرب باب السلام، تسمى بالكتبخانة السليمانية، أسسها السلطان العثماني عبد المجيد، وجمع محتوياتها من شتات الكتب والمخطوطات الموجودة بالحرم المكي الشريف، فضلًا عن الكتب التي أرسلها السلطان نفسه من استانبول، وكان لكل كتبخانة من هاتين فهرست مخطوط بخط اليد، وموظف يعتني بأمورها،وتنوعت الكتب التي تحتويهما ما بين كتب دينية، وأدبية، وتاريخية، وغالبها باللغة العربية، وبها القليل باللغات (الفارسية، والتركية، والأُردية)، وقد كان بمكة المكرمة كتب كثيرة ومهمة،أكثرها مخطوطات دينية، وضعت في الخزانات الحائطية بالحرم المكي الشريف، بعضها سُرِق، والبعض الآخر أتت عليه السيول التي اجتاحت مكة عبر فترات مختلفة.

وكثيرًاماتعرضتمكةالمكرمةلسيولكبيرة،نذكرمنهاعلىسبيلالمثال كما أشار الفاخري في تاريخه : سيلسنة 1039هـ/1629م،وسيلسنة 1091هـ/ 1680م،الذيأغرقنحومائةنفس،وهدمنحوألفبيت،وعلاعلىمقامسيدناإبراهيمبالحرمالشريف،وعلاقفلب ابالكعبة

وكان في مكة المكرمة عديد من المنشآت الحكوميةالتي أنشئت بغرض النفع العام للمدينة وللحجاج في الوقت ذاته، والتي كان من بينها مكتب (تلغراف)، وآخر (للبوسته)، أو البريد بجوار باب الوداع بالمسجد الحرام، وهو من بناء الوالي العثماني عثمان باشا نوري، أنشأه عند بنائه لدار الحكومة الحميدية سنة 1300هـ/1882م، وكان البريد ينطلق من مكة كل مساء ليصل لجدة زمن الحج بكثرة، ومنها إلى مكة المكرمة ، وقد تنوعتوسائلحملالبريد (الرسائل) منالدوابوالطيورفيمكة المكرمة وسائر البلادالإسلاميةوعبرالعصورالمختلفة،فقداستخدمفيحملهالبغال،والخيول،والجمال،فضلًاعنالحمامال زاجل ، وكانت المكاتبات توضع في جوالات، وكان نظام العمل بهذين المرفقين الخدميينبسيطًا جدًّا، لا يرتقي لحد التعامل مع هذه الجموع الغفيرة من الحجاج، إذ لم تهتم به الحكومة العثمانية، والحال كذلك في مدن الحجاز الباقية كجدة، وينبع، والمدينة المنورة.

كما بنى محمد علي سنة 1238هـ/1811م مقرًّا إداريًا لمحافظة مكة، وجعل مقره الدار التي كانت تعرف ببيت باناجة أمام باب علي.

من ناحية أخرى خصصت الحكومة العثمانية في مكة المكرمة مطبعة للولاية تسمى باسمها، يصدر عنها جريدة بالتركية والعربية اسمها (حجاز)، وهي الجريدة الرسمية بمكة المكرمة، وكل ما فيها يتعلق بالحكومة و إعلاناتها.

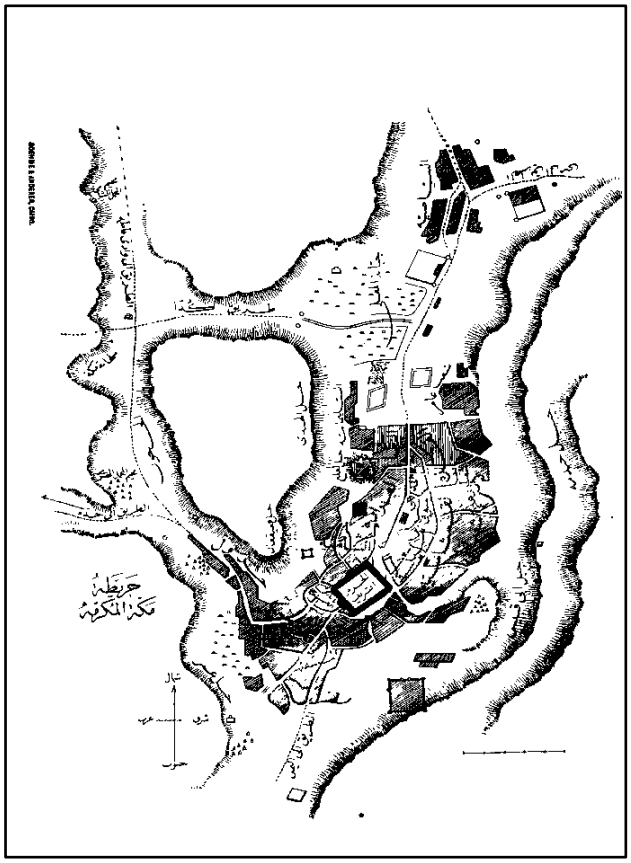

(شكل 1) خريطة توضح تخطيط مكة المكرمة سنة 1244هـ/ 1828م – عن :

البتنوني – الرحلة الحجازية